

نظرية المعرفة عند مصطفى محمود

دراسة تحليلية

إعداد

شيماء إبراهيم أحمد الليثي

أ.د/ صلاح السيد عبده رمضان

أ.د/ حنان أحمد رضوان

أستاذ أصول التربية

مدرس أصول التربية

كلية التربية - جامعة بنها

كلية التربية - جامعة عين شمس

قضية الدراسة

لا نستطيع أن ننكر أن طبيعة الإنسان والمعرفة لهما من الأهمية القصوى في توجيه العقل نحو تربية سليمة للإنسان، إلا أن كل ذلك لا يتضح إلا بوضوح نظرية محددة ألا وهي نظرية المعرفة، فالمعرفة هي الوسيلة التي لا غنى عنها للتربية، أو كما يسميها البعض "وسيلة التربية"¹؛ فالمعرفة تظهر أهميتها في التطبيقات التربوية، وخصوصاً أن المعرفة تتعامل مع الطبيعة الإنسانية من "عقل وجسد وروح" والتي تعني أساساً بموضوع لا يقل أهمية عن موضوع المعرفة ألا وهو العلم.²

ويعتبر مبحث المعرفة³ الأبيستمولوجي إلى جانب مبحثي الوجود والقيم الأنطولوجي من أهم مباحث الفلسفة⁴، ذلك أن نظرية المعرفة "Gnoseologie" تختص بالبحث في إمكانية قيام معرفة ما عن الوجود بمختلف أشكاله ومظاهره، حيث يبدأ المبحث الأول بالسؤال عن كيفية المعرفة "كيف أعلم؟" ويبدأ المبحث الثاني بالسؤال ماذا أعلم؟ فالأول كان وضع نظرية في المعرفة، والثاني لوضع نظرية في الوجود⁵. لذا فقد توجه بعض المحدثين إلى التوحيد بين الأنطولوجيا والأبيستمولوجيا⁶، بهدف الكشف عن الحقيقة، ولم تتجه عنايتهم إلى البحث عن صدق المعرفة وحدود إمكانياتها، فقد وضعوا ثقتهم في قدرة العقل الإنساني على المعرفة إلى أن جاء السوفسطائيون فكانوا أول من وجهوا الأنظار إلى مباحث المعرفة وإمكانياتها⁷.

وإذا كانت المعرفة ممكنة، فما أدواتها، وما حدودها؟ وما طبيعتها؟ هل ذات طبيعة واقعية أم ذات طبيعة مثالية؟ ومن منطلق تلك التساؤلات سوف نبحت المعرفة عند مصطفى محمود بشكل متكامل المعرفة من حيث علاقتها بالذات، وذلك لما للذات من دورا أساسيا في المعرفة، وكذلك نظرة الدين للمعرفة، حيث تعد نظرة الدين أبعد وأشمل⁸.

وعليه فقد اهتم مفكرنا بقضية الطبيعة والإنسان في الفلسفة الإسلامية مما يدخل أو يمهّد لنظرية المعرفة الإسلامية⁹، حيث اهتم مصطفى محمود اهتماما كبيرا بقضية المعرفة. وذلك هو الباب الأول لاكتشاف عالم مصطفى محمود، أما الباب الثاني فهو باب الإنسان أو الأدب والفن، وهما المداران اللذان يدور في فلكهما أدب مصطفى محمود كما دار فيهما فكر مصطفى محمود.. حيث اتخذ من الوعي أداة للمعرفة.

وتحاول الدراسة الحالية أن تكمل ما انطلق منه مصطفى محمود حيث الإنسان كموضوع للمعرفة، في أدبه وكتاباتة سواء الفلسفي منها على مستوى التفكير أو الأدبي على مستوى التعبير.. وهو - كما يقول النقاد - لم ينطلق مصطفى محمود انطلاقة أي كاتب تقليدي يقول ما عنده ثم يستدير ليقول ما عند الآخرين، وإنما انطلق بفنيته الهائلة التي جمع فيها بين احساس الأديب وإدراك الفيلسوف. ومنهج هذين فيه عمق الفكرة ودفء العبارة، فيه البصر الذي روحي بالبصيرة. والمادي الذي يؤدي إلى المعنوي، والرؤية التي تلتقي بالرؤيا كأروع ما يكون اللقاء فهو يتعاطى الأشياء بعقله. ثم يعيها بوجوده. ثم يجسدها بكلمة فإذا هي مسرحية أو رواية أو قصة قصيرة... ولذلك فإننا سوف نقوم بتحليل كتابات مصطفى محمود، بحيث يمكن من خلال كتاباته معرفة ما الأسس والمبادئ التي استند عليها كاتبنا في قضية المعرفة.

ومن هنا فإن الدراسة الحالية تحاول أن تؤكد على أن فن مصطفى محمود غير قابل للتمذهب، بمعنى أننا لا نستطيع أن ندرج المؤلف تحت مذهب أدبي معين أو نطلقه وراء فيلسوف بالذات.. فهو ابن حياة.. استطاع أن يفلسف حياته ويجيها فلسفته وأن يتخذ منها جميعا مادة لكتاباتة في الأدب والفن في القصة القصيرة والرواية والدراما وأدب الرحلات¹⁰.

ولا شك أن نظرة فيلسوفنا تكاملية تخلط الدين بالمعرفة، وهو ما يعلمه من أمور الدين والدنيا تفصيلاً، وما هو بسبيل علمه بوسائله المعرفية المتاحة، أو التي تتاح بالمحاولة الدائبة¹¹، ونحن بصدد البحث في ذلك من منطلق أن رأي كل فيلسوف في المعرفة يتأسس على مذهبه في النفس تأسيساً ذاتياً¹².

افتراضات الدراسة

■ أن هناك مجموعة من الكتب والمقالات خاصة بمصطفى محمود وتم تحليلها تحليلاً دقيقاً.
 ■ أن هذه التحليلات تنطوي على مجموعة من الأسس والمبادئ التي يمكن الاستفادة منها وتطبيقها في واقعنا التربوي في خلال نظرية المعرفة.

أهداف الدراسة

تستهدف الدراسة الحالية:

- اجراء تأصيل لنظرية المعرفة من خلال تحليل كتابات مصطفى محمود بحيث يمكن اشتقاق مجموعة من الأسس أو المنطلقات يمكنها أن تقدم أبعاداً جديدة في الفكر التربوي الإسلامي.
- معرفة المقصود بنظرية المعرفة كما برزت في فكر مصطفى محمود.
- تحديد طبيعة ومنهج المعرفة كما تناولها مصطفى محمود في كتاباته.

منهج الدراسة

طبيعة الدراسة تجعل المنهج الوصفي باعتباره أكثر ملائمة لطبيعة الدراسة، مع استخدام أسلوب تحليل المحتوى حيث تضمن أسلوب تحليل للفكرة، وذلك بالعمل على جمع الجوانب التي تتشابه مع بعضها عندما يعرض الكاتب

الدكتور مصطفى محمود رؤيته من خلال عرضه الثري للأفكار والمعارف والقيم. وفيما يلي نتعرض لطبيعة المعرفة من خلال التمحيص والنقد.

مصطلح الدراسة

المعرفة

تعني "مجموعة المعاني والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به، وهي بهذا المعنى لا تقتصر على ظواهر من لون معين وإنما تتناول جميع ما يحيط بالإنسان وكل ما يتصل به"¹³.

وتمثل المعرفة عند مصطفى محمود "مجموعة فكرية مركبة من إدراكات وذكريات وأحكام، وبتعريف أقصر هي أحكام وترابط أحكام"، وهذه الأحكام تقتضي علاقة بين العقل والموضوع أو الشيء المراد معرفته والحكم عليه. وتعرف أيضا بأنها "إدراك الشيء والقدرة على التأمل والفهم والتفكير، فبهذه المقومات يمكن للإنسان تكوين معارف"¹⁴.

فعندما نقوم بدراسة مقاطع الرحلة المعرفية للإنسان نجد أنه يبدأ رحلته هذه بعد ظهوره على متن الأرض أو ما يعبر عنه بعالم الدنيا، فالإنسان يولد خالي الذهن من أي معرفة تذكر، ولكن خلو نفسه من المعرفة لا يمانع حركته المعرفية؛ ولك لوجود خصلتين يتحلى بهما: الأولى أنه يميل بفطرته للتعرف على ما يحيط به من موجودات. والثانية أن الله تبارك وتعالى قد زوده بجملته من القنوات التي يرتبط من خلالها بالخارج¹⁵.

خطوات الدراسة واجراءاتها:

تمثلت الدراسة واجراءاتها في:

- استقصاء العوامل الكامنة وراء آراء مصطفى محمود عامة، وعن المعرفة الإسلامية خاصة.
- تحديد المنهج الذي استند عليه مصطفى محمود في معالجته لقضية الدراسة، مع إبراز مصادر الفكر التي استقى منها أصول هذا المنهج.

- تحديد مفهوم المعرفة مع إبراز خصائص نظرية المعرفة كما تناولها مصطفى محمود.
- اشتقاق مجموعة من المبادئ والأسس مستمدة من ثقافتنا يمكن تطبيقها والإستفادة منها في مجال التربية.

الإطار النظري الدراسة

هذه الدراسة تتناول بنوع من التحليل قضية المعرفة كما عرضها مصطفى محمود من خلال مؤلفاته وكتبه التي شكلت آراؤه فيها ملمحا بارزا في منهجه الفكري. كما تنبثق كذلك أهمية الدراسة من أهمية المعرفة ذاتها، نظرا لما تكسبه المعرفة للمجتمع من خصائص وسمات معينة تتمثل في العلم والإبداع والتطور والأسلوب الأمثل لحل المشكلات، فكلها تعد بمثابة نوع من الضبط الاجتماعي والتطور إذا اشترك أفراد المجتمع في نفس السمات¹⁶

ولذلك فإننا نركز على رأي فيلسوفنا لنعرف دور المعرفة عنده ونبحث أيضا دور الحس والعقل في نظرية المعرفة لديه، ونفصل نظريته في العقل لما لها من دور هام على صعيد الفكر الفلسفي الإسلامي، وكذلك نبحث العلاقة بين المدرك والمدرك، أو بين الذات والموضوع، ثم ننتقل إلى المعرفة الإشراقية التي تتجلى فيها لديه النزعة الصوفية بناء على نصوص وردت في بعض مؤلفاته. فالمعرفة كانت ولا تزال من أهم المسائل التربوية الأساسية في أي مجتمع من المجتمعات على الإطلاق، فهي التي تقف وراء كل ما يتخذ في التربية من أعمال - سواء كانت هذه الأعمال تتصل بفلسفة التربية الإسلامية أو بأهداف التربية الإسلامية¹⁷. لذلك كان لابد من التعرف على إمكانية المعرفة وطبيعتها عند مصطفى محمود.

إمكانية المعرفة وطبيعتها

يرى مصطفى محمود تأييد الرأي القائل بانعدام الآراء الفطرية، ويرى أن المعرفة مكتسبة، حيث أنه وجد ربه بالبحث عنه بعقله أي بالبحث في الكون ومعرفة أسراره وكشف حقائقه التي لا تتأني إلا بالعلم والتعلم، وكلمته الأساسية "فاعلم أنه "لا إله إلا الله" واستغفر لذنبك وهل يفترق مؤمن عن كافر إلا بهذه المعرفة فعلى الأكثر لا ترى سوى إنسانيتك، وخير ما يؤيد ذلك قوله عن الطفل "ففسه صحيفة بيضاء وأمه تنقشها كما تشاء"¹⁸.

ويؤمن مصطفى محمود بأن المعرفة مكتسبة وتلك خصيصة تتميز بها الطبيعة الإنسانية في ديناميكيته، وهي الرغبة في الانطلاق ومعرفة ما في الكون، ومعرفة ما هو مجهول فالنفس البشرية دائما تتطلع إلى كشف أسرار الكون ومعرفة حقيقته، فطبيعة المعرفة كما يراها مصطفى محمود مكتسبة وليست فطرية، وهكذا تصبح المعرفة هي "الرغبة في اكتساب العلم والتشوق والاستطلاع وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس إلى العلم والبحث. ومن ثم يصبح الغرض من المعرفة ليس تعلم العلوم فقط وليس معرفة الكون، وإنما معرفة ذات الإنسان من خلال معرفته بالكون لتحقيق سعاده، وهذا ما أكد عليه أيضا قاسم أمين بأن المعرفة والحقيقة مكتسبة وكما ضالة الإنسان في العالم وعليه أن يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب، فالحقيقة هي الكنز الذي أودع الله فيه كل آمال الإنسان. فالدين في ذاته علم بالله والعلم بالله لا ينفصل عن العلم بمخلوقاته فالمعرفة بالصانع لا تنفصل عن المعرفة بصنعه.. بل إن كل معرفة منهما تؤيد الأخرى وتعزدها ولا تناقضها أو تنفيها.. فالكون كله بما يتجلى فيه من وحدة القوانين هو خير شاهد على وحدة الصانع.. فهو محل لقدراته وأفعاله وصفاته.. والتاريخ هو المشيئة الإلهية.. والتطور التكاملي في الكون هو ذلك الكدح إلى الله سعدا مرتقى بعد مرتقى، ونحن نرى الله في كل شيء، وليس ذنبنا أنهم لا يرون الله في أي شيء.. وأن نظرهم تقف عند حدود الميكروسكوب وشاشة الرادار.. وأنهم يقسمون كل معرفة إلى ألف جزء وجزء ثم يتيهون في الأجزاء ولا يرون إلا الأجزاء¹⁹.

ويرى مصطفى محمود أن الإنسان دائما يكتسب المعرفة عن طريق التربية والتعليم، وأنه لا يوجد بين أفكارنا ما هو فطري موروث وإنما كل معارفنا جاءت عن طريق الحواس، فأثرت في صفحة الذهن التي أتت إلى هذا العالم بيضاء خالية من أي نقش، فالمعرفة بالله عز وجل لا تتحقق إلا بتحصيل العلم، فكلما ازداد المرء تعلما زادت معرفته.

ذلك لأن المعرفة هي وجود العلم وتحصيل ذلك العلم لا يأتي إلا بالتفكير والتدبير، ففيهما مركز المعرفة²⁰؛ ولذا فإن مفهوم المعرفة ليس مرادفا لمفهوم العلم، فالمعرفة أوسع حدودا ومدلولا وأكثر شمولاً وامتداداً من العلم؛ ويفرق بعض الباحثين بين المعرفة والعلم بتعريفهم " العلم بأنه (المعرفة المصنفة)²¹، وعليه فإن المعرفة الإنسانية تعد رحلة للعقل في مسراه، ومعراجه نحو إدراكه للحقيقة، وهي رحلة شائكة يتخبط فيها العقل، ويتوه الوجدان، وتدمي الأقدام، ويضل المسافر عبر

قطار المعرفة يصطدم بالعديد من الأزقة المسدودة، قبل أن يهتدي إلى الطريق المستقيم²²، فالأصل في المعرفة هو الدهشة أو الإندهاش الذي يثير التساؤل والتأمل والتفكير، ويدعو إلى البحث وأسلوب التعامل مع الواقع²³، ودور الأنبياء هنا أنهم اختصروا لنا الطريق وقدموا لنا الحقيقة كلها دفعة واحدة كما جاءهم وحيا، وهذا هو الفضل الإلهي الذي حفظنا من الضياع في شعاب عقلنا المضل²⁴.

حدود المعرفة

تدفع المعرفة إلى التساؤل حول كيفية إدراك الإنسان الوجود الذي يعيش فيه، وهل يعتبر الوجود صورة من الإدراك الذاتي للإنسان؟ أم أنه وجود مستقل عن الذات؟ ثم ما هي الأدوات التي يستخدمها الإنسان لإدراك الوجود²⁵، ومن خلال البحث في القضايا التي اهتم بها مصطفى محمود في مبحث المعرفة، تبين أنه يوجد عدد من المذاهب الفلسفية التي تبحث في نظرية المعرفة وكذلك تحدد حدودها ووسائل تحصيلها وهي:

المذهب الحسي أو التجريبي

ترجع المعرفة إلى ما تمدنا به الحواس، باعتبار أن العقل "صفحة بيضاء" ليس فيه إلا ما تنقله إليه حواسنا²⁶، فالحواس وحدها هي سبيل وصول المعلومات إلى الذهن²⁷.

المذهب العقلي

إن العقل بما من استعدادات أولية أو مبادئ قبلية هو وسيلتنا الوحيدة للمعرفة اليقينية؛ فالحقيقة تدرك بالعقل لا بالحواس وقد ذهب في هذا بعض الفلاسفة اليونان، فقالوا إن الحق يدرك بالعقل، أما الحواس خادعة ومضللة وإن حس كل شيء خاص به²⁸.

المذهب الحدسي

إن مذهب العارفين ليس مجرد معرفة حدسية فقط.. ولكنه همة واقتدار وكدح ومغالبة.. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن تتعلق إلا بما تشهد بصرا وسمعا وحواسا، فالطريق الصحيح للمعرفة الجديرة بهذا الإسم هو الحدس²⁹.

فالحضارة المادية لم تقدم للإنسان إلا الموت وحياة تمضي سدى وتنتهي عبثا.. أما الإسلام فقدم للإنسان الخلود وحياة تمضي لحكمة وتنتقل من طور إلى طور وفقا لنواميس ثابتة من العدل الإلهي حيث لا يذهب أي عمل سدى ولو كان مثقال ذرة من خير أو شر (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)³⁰.

واليوم تصل الحضارة المادية إلى ذروة من القوة والعلم وتكتمل لها أدوات الفعل والتأثير من أعلام وكتب ومجلات فهي تغتال العقل والروح وتحالف على الإنسان بخيلها ورجلها ولكنها رغم كل شيء ضعيفة متهافئة واهية لأنها تغتال نفسها ضمن ما تغتال وتأكل كيانها وسوف تقتتل مع بعضها البعض وتتحارب ولا يبقى على الأرض إلا الإسلام يقف كمنارة في بحر لحي مظلم متلاطم الموج³¹.

وهناك مذهبين في تحديد قيمة واتجاه المعرفة بين الشك واليقين في التوصل إلى الحقائق وهما: النزعة الوثوقية: والتي تقول بإمكانية توصل الإنسان إلى معارف مطلقة، أي أن كل معرفة سواء أكانت عقلية أم حسية فهي صادقة على الإطلاق³².

النزعة النقدية أو النسبية: التي ترى أن المعرفة البشرية محدودة بالمعطيات الحسية، والتي يكون دور العقل فيها نسبي³³.

واستنتاجا مما سبق نجد أن مصطفى محمود قد تناول قضية - إمكان المعرفة - بالدراسة من وجهة نظر فلسفية، حيث توصل إلى أن المعرفة اليقينية تنسب إذن للعلم، وأن الظن هو معرفة احتمالية لا تقوم بما عقيدة ولا يبنى عليها فكر. وبذلك تكون انقسمت المعلومات الوجودية إلى قسمين: معلوم استأثر الله بعلمه، فهو الغيب، ومعلوم كشف لنا

عنه، فهو الشهادة، وللشهادة كذلك مستويان: مستوى المعرفة الكاملة والتفصيلية، وهو ما علمنا من أمور الدين والدنيا تفصيلاً، وما نحن بسبيل علمه بوسائلنا المعرفية المتاحة، أو التي تتاح بالمحاولة الدائبة؛ ومستوى المعرفة الإجمالية، وهو ما أخبرنا بوجوده من عوالم الملاء الأعلى، كالجن والملائكة، والجنة والنار والقيامة والحساب.. الخ.. الخ... فنحن لا ندري من ذلك كله سوى العناوين، لأن موضوعاته لا تخضع للشهود والمعينة. فقد احتجبت عنا بموجب أمر إلهي³⁴. وهذا يعني أن العقل في استطاعته معرفة الحقائق والتوصل إليها؛ وكذلك معرفة مؤمن بها ولا يمكن التوصل إليها؛ إذن فالمعرفة يقينية، وبالعقل يتم اكتسابها، فالعقل إذن من أهم المصادر التي عن طريقها يحصل الإنسان معارفه، من منطلق أن الوعي أداة للمعرفة، والإنسان موضوع لها³⁵.

وبناء على ما سبق فإنه غير صحيح أن الحضارة الإسلامية وقفت عند النقل عن اليونان دون عطاء.. بدليل الاختلافات الجوهرية بين نتاج للحضارتين.. فالرياضيات اليونانية وقفت عند المتناهي بينما اعتمدت الرياضيات العربية على فكرة اللامتناهي كما أن إدارة المعرفة عند اليونان كانت علم المنطق بينما كانت عند العرب هي العلم التجريبي، وكانت فلسفة اليونان فلسفة معرفة وعند الحرب فلسفة عمل وفعل.. ولم يكن للتحتمية المساوية اليونانية وجود في المنظور الإسلامي المنفتح على المستقبل التواقي للتغيير، وكانت النظرة الإسلامية نظرة جامعة بين العلم والحكمة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)³⁶.

فالمسلم ينظر إلى كل شيء على أنه آية فيها شواهد الحكمة والعناية والقدرة الإلهية بينما العلم في الغرب مغلق على علموية وتكنوقراطية لا هدف لها سوى الكم والمزيد من الشراء والقوة والهيمنة، واليوم يعيد التاريخ نفسه فترى الإسلام الذي بدأ في مجابهة مع الفرس والروم نراه اليوم في مجابهة مع أمريكا.. وكما فعل في الماضي... نراه يقدم بمقابل هذا الفشل الحضاري تصورا راقيا للحياة³⁷.

فالإسلام يعلمنا أنه في ضوء الإيمان بالله يبدو لكل شيء حكمة ولكل حدث غاية خيره وإن خفيت... ويشعر كل إنسان أن لعذابه معنى وغاية، وأن لديه القدرة على أن يعرف ما في الكون من موجودات، بما فيها نفسه، حتى إذا

عرف ذلك على حقيقته، أمكنه أن يوجه أعماله إلى ما يعود عليه بالنفع وكذلك يكون على معرفة ويقين أن لا شيء يذهب سدى، وأن الحياة مشروع إلهي جميل وأن لكل إنسان دورا منسجما مع الحركة الكونية الكلية.. وهو ما يعطي المؤمن إحساسا بالوحدة والانتماء والإستمرار³⁸.

أ. أنواع المعرفة

وإذا كانت آراء الفلاسفة والعلماء قد اختلفوا فيما بينهم نحو مصادر المعرفة وطريقة اكتسابها فإن مصطفى محمود لا يتفق معهم في المذهب العقلي، وأيضا لا يتفق مع أصحاب المذهب الحسي، وإنما كان مؤمنا إيمانا كاملا بأن ما خلقت المعرفة إلا ليحس الإنسان بقيمة العلم في هذا الكون، وليقدر ما وهبه الله له في هذه الدنيا... ألا وهو - العقل - ليعي به مراد الله له بأن يتحدى هذا العقل، ليكشف له عن أن هناك عوالم من وراء العقل، وأن مملكة الله هي مملكة بلا حدود وملك بلا نهاية.. فوراء العقل هناك اللا معقول ووراء الطبيعة هناك ما وراء الطبيعة... ثم هناك ما لا عين رأت و أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر³⁹.

حيث أراد الله لمصطفى محمود أن يعي ويقدر معرفة أخرى، ألا وهي المعرفة الإشراقية التي تملك القلب والإحساس والوجدان حيث أكد أنه ليس للعقل سلطان عليها، ومثال ذلك ما يقوله الله لعبده المقرب: " أليس إرسالي إليك العلوم من جهة قلبك إخراجا لك من العموم إلى الخصوص؛ ألسنت إذا أمرتك بطرح ما أبديه لك من علوم ومعارف غيرة عليك، ولأستخلصك لنفسي، هو إخراج لك من المعرفة إلى الإشهاد ومن الخصوص إلى خاصة الخصوص، لتكون لي كما أنا لك، لأكون موضع نظرك كما أنت موضع نظري، ليس بيني وبينك شيء، لا اسمي ولا اسمك ولا علمي ولا علومك؛ أودعني اسمك حتى ألقاك أنا به ولا تجعل بيني وبينك اسما ولا علما ولا معرفة فلحضرتي بنيتك لا للحجاب... ففي حضرتي لا يستطيعك شيء لأن معك سلطاني وقوتي ولأنك تليني وكل شيء مما أبديه يأتي بعدك"⁴⁰.

ومن خلال استعراضنا لأنواع للمعرفة عند مصطفى محمود نستنتج مما سبق أنه يوجد لديه ثلاثة أنواع: المعرفة

الحسية، والمعرفة العقلية، والمعرفة الذوقية أو الإشراقية "الصوفية"، وهذا التقسيم لا يعني أن هناك انفصالا بينهما، بل هي

متصلة ويكمل بعضها بعضا، على الأقل فيما يخص النوعين الأولين، ولذا فإن كل قسم يشكل درجة من درجات الإرتقاء في سلم المعرفة، وموقف عند هؤلاء الفلاسفة قديما، ولكنها بقيت بقوة حتى العصر الحديث، وإن اتخذت شكلا وإطارا جديدا عند هذا الفيلسوف أو ذاك. فما هو موقف مصطفى محمود بينها؟ وللإجابة على كل ذلك سينصب حديثنا تفصيليا على تلك المناهج...

1- المعرفة الحسية

تعد المعرفة الحسية هي أول درجة في سلم المعرفة عند مصطفى محمود، وفيها يبدأ الإنسان بالتعامل مع العالم الخارجي محاولا إدراكه، فتحصيل المعارف للإنسان يكون من جهة الحواس. حيث يرى أن المعرفة الحسية ضرورية كالمعرفة العقلية، ولا غنى للعقل عنها، لأن الحواس هي المصادر الأولية التي تمنح النفس المعرفة⁴¹.
ولذلك فإن مصطفى محمود يؤكد على أن الحس الغيبي هو أمر جوهري في الدين... بل هو جوهر الدين كله... ولهذا جعله الله أول صفات المتقين... قال تعالى: (الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)⁴²، فجعل الإيمان بالغيبي مقدما على الصلاة وعلى الإنفاق.. وذلك لأن الغيب هو جوهر الدين.. (فإن الله، والآخرة، والحساب، والجنة، والنار، والملائكة، والجن، والسموات السبع، والعرش، والكرسي، وما بعد الموت، وما قبل الميلاد، والقيامة، ومعظم مشاهد القرآن العظيمة...) كلها غيبات وهذه الغيبات هي الطاقة الحسية التي تشحن القلب وتثير العقل⁴³.

ومما سبق تتضح المعرفة الحسية كما وصفها مصطفى محمود من خلال بضع نقاط كالآتي:

- الحواس مصدرها الأول إحساس مستمر بالحضور، وبها نتعرف على الماضي والحاضر، فالتذكر يعني ماضيا والتوقع يكون مستقبلا.
- الفواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل فواصل وهمية، لأن اللحظات الثلاث يتداخل بعضها في بعض كما يتداخل الليل والنهار عند الأفق... والذي يقوم بتعيين اللحظة في الشعور هو إحساسنا وانتباهنا.

- كل ما نراه ونتصوره ما هو إلا خيالات مترجمة لا وجود لها في الأصل، مجرد صور رمزية للمؤثرات المختلفة صورها جهازنا العصبي بأدواته الحسية المحدودة⁴⁴.
- ينقسم الإحساس إلى زمن خارجي زمن الساعات والمنبهات زمن كاذب خداع لأنه يساوي بين اللحظات ويجعلها مجرد أرقام على مينا، الساعة واحدة... اثنين... ثلاثة.. مجرد حركة العقرب، إنه ليس زمانا ولكنه أوضاع مختلفة في المكان؛ أما الزمن الحقيقي فهو داخلنا، وهو اضطراب دائم لا تتساوى فيه لحظة بأخرى.. لحظة صغيرة... لحظة كبيرة... لحظة تافهة⁴⁵.
- إن الزمن الخارجي نراه ونعرفه بالعقل وندركه بالتحليل والقياس والحساب ونعبر عنه بواسطة الأرقام، وندرك الزمن الداخلي مباشرة وبدون واسطة.. على شكل مكاشفة داخلية لكياننا؛ لذلك نقول عن الزمن الداخلي إنه الزمن الحقيقي، لأن الحقيقة تطالعنا فيه عارية بدون واسطة وبدون رموز، ولكن لا نعيش حياتنا كلها في الزمن الحقيقي لأننا لا نعيش في نفوسنا طول الوقت، وإنما نعيش في مجتمع... نخرج ونختلط، ولهذا لا نجد مفر من الخضوع للزمن الآخر.. زمن الساعات فنتقيد بالمواعيد ونرتبط بالأممكة.
- إن الإحساس يركز في الذات أو النفس وعليه فإن مصطفى محمود قسم الذات إلى (ذات سطحية ثرثرة - ذات تافهة جامدة - ذات عميقة) ولذلك فإن المعرفة الحسية هي الدرجة الأولى في سلم المعرفة، والمقدمة الضرورية للمعرفة العقلية، وعليه فإن الإنسان يبدأ في التعرف على الأشياء من خلال الحواس الخمس السمع والبصر واللمس⁴⁶.
- أن الحواس هي أدوات يتم من خلالها اكتساب وتحصيل العلوم، وذلك لأنها منوطة بتشكيل صورتنا عن العالم من حولنا من أفكار تتشكل وفق وقائع تمت ملاحظتها، فتكتسب المعرفة الحسية عندما نرى ونسمع..

- قسموا الحواس بشكل عام إلى قسمين حواس ظاهرة وحواس باطنة حيث ركزوا على أن الإدراك الحيواني أما في الظاهر وإما في الباطن، والإدراك الظاهر هو بالحواس الخمس التي هي المشاعر، والإدراك الباطن للوهم.
- أن العقل لا ينمو إلا بالاعتماد على ما يصله من معلومات تأتيه عن طريق الحواس، ولذلك فإن الإنسان لا يستغني بأي حال من الأحوال عن العقل والحواس في تحصيل المعرفة.

وقد أكد مصطفى محمود في أن الحواس أساس العلم المادي، حيث اعتبر أن "قوة الحس ميدانها الطبيعة، بل الظاهر الحس من الطبيعة"، إن ميدانها الألوان، والأصوات، والروائح، والطعوم فميدانها الإحساس الجسماني في الجسم البشري، وفي خارجه، وهو ميدانها في الحدود التي رسمها الله - (جل جلاله) لها، ولذلك أطلق مصطفى محمود على المعرفة الحسية بالمعرفة المادية، ويرى أن هذا هو ميدانها الذي ينبغي ألا نتعداه "فالسمع والبصر هما أساس العلم المادي علم التجربة والملاحظة.

2- المعرفة العقلية

لا تقتصر المعرفة على الحواس وحدها كما أكد مصطفى محمود وإلا كانت المعرفة قاصرة، وإذا كان لا بد للمعرفة أن تنتقل إلى مستوى أعلى فلا يوجد أمامها إلا العقل لتنتقل من خلاله، لتصبح المعرفة آنذاك معرفة عقلية، حيث تنطبع صورة المحسوسات في الحواس فتحصل المعرفة، فإذا لم يكن هناك طعام فلا ندرك الطعم، وإذا لم يكن هناك شمس فلا ندرك الألوان، وإذا لم تكن هناك موجات في الهواء فلا ندرك الأصوات... وظهر ذلك جليا حينما أكد مصطفى محمود على أن هذا النوع من الإحساس يشبه إحساسنا بالحركة، حينما نحرك زراعنا فنحس أننا نحركها إلى فوق بدون حاجة إلى أن نراها، لأننا نحس بهذه الحركة من الداخل مباشرة بدون وساطة الرؤية؛ بينما يحتاج الذي يشاهدنا من الخارج أن يرى حركات ذراعنا بعينه ويتابعها ويحللها بعقله، ليقول إننا نحرك ذراعنا إلى فوق.. وهذا هو تطور المعرفة الحسية عن طريق الإدراك إلى معرفة عقلية وذلك عن طريق العلم الذي هو أساس المعرفة⁴⁷.

ويبين الإسلام أن دور العقل كأداة للمعرفة هو إدراك الحقائق وإحكام العلاقات بين الإنسان وبين الحقائق التي يواجهها عن طريق المعرفة التي تبدأ بالإدراك الحسي ثم يكمله الإدراك العقلي ويتضح ذلك في قوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)⁴⁸ وتشير هذه الآيات إلى أن الإنسان موهوب بالملكة التي تجعل له القدرة على وضع أسماء للأشياء.. أي أنه يكون لتصورات لها وتكوين هذه التصورات معناه إدراكها وفهمها، فالمعرفة الإنسانية إذن معرفة قائمة على إدراكية، وبفضل هذه المعرفة الإدراكية، يدرك الإنسان ما هو قابل للملاحظة من الحقيقة. ويتضح دور العقل أيضا كأداة من أدوات المعرفة متلازما مع الحس في تحصيلها في قوله: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)⁴⁹، وفي تفسير الآية وبيان دور العقل المعرفي نرى أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأشياء (السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) آلات نحصل بها العلم والمعرفة ونحس بمشاعرنا جزئيات الأشياء وندركها بأفئدتنا ولننتبه لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرار الإحساس فيحصل لنا علوم بديهية تتمكن من النظر فيها لتحصيل العلوم الكسبية وذلك وصف دقيق لعملية الإدراك، ولقيمة التكامل بين الإدراك الحسي والإدراك العقلي للحقائق، فحين تفرع المنبهات الحسية حواس الإنسان ينتقل أثر هذه التنبيهات إلى العقل حيث يقوم بدوره بتأويل هذه الإحساسات تأويلا يزودنا بمعلومات ومعارف عما حولنا، أي يحول العقل المدركات الحسية التي تحمل إليه الحواس إلى صورة ذهنية يتم التفكير من خلالها وقد ربط القرآن الكريم بين الحواس والعقل في عدد غير قليل من آيات الكتاب الكريم ولعل الربط بينهما يوحى بالتكامل بينهما كوسائل للمعرفة.

ويؤكد مصطفى محمود على ذلك بقوله أنه مهما كثرت معارف الإنسان فإنها لا تملأ كل فكره، وذلك لأن بعد

كل اكتشاف يحققه الإنسان عن طريق العلم يبحث عن اكتشاف آخر، وفي نهاية كل مسألة يجلبها تظهر مسألة جديدة

تطالبه بجلها، الآن وغدا يشتغل عقل الإنسان بالعلم، أي بمعرفة الحوادث الثابتة، ولا يمنعه ذلك من التفكير في المجهول الذي يحيط به من كل طرف؛ فالعلم عندنا وسائله الحواس والاستقراء والتحليل العقلي⁵⁰.

ولذلك فإن من يستخدم الحواس فقط كالذي يعبت باللامعقول، ولكن الذين أوتوا الأبصار يعرفون أنه سيكون لها دور مكمل، لأن كل سطر في ملحمة الوجود له معنى، المهم أن نعرف كيف نقرأ بالعقول والبصائر، لا بالعيون فقط؛ وكيف نرى الله في سجل أفعاله؟ وكيف نرى أثر يديه على مخلوقاته؟ وكيف نعرف ما وراء الظاهر المبتذل للحوادث؟ وكيف نفرض الشفرة السرية التي كتب بها الله كتاب الأقدار، كل هذه أمثلة لرؤية العقول والبصائر والإفهام، وهذا حظ أولي الألباب من رؤية الله بالعقل... وهي رؤية آثاره واستشفاف حكمته بالفهم عنه⁵¹.

فكما يتلقى العلماء الإلهام من العقل الكلي من برزخ القوانين العليا التي سخرها الله لتدبير شئون الكون لذا فإن كل عقل يتلقى حسب قدرة استيعابه ومستواه، ولكل مجتهد نصيب؛ ويؤكد مصطفى محمود على ذلك بقوله إن كل ثمار المعرفة متاحة لمن يجتهد في فهمها، والكرم الإلهي لا يضمن على مجتهد⁵²، غير أن من وسائل العقل أيضا التلقي من القلب والإستمداد من الله... فالله هو المستمد النهائي لجميع الحقائق، وذلك هو العلم الإشراقي. ولذلك كانت العبادة والطاعة والاستقامة من وسائل العلم بل هي الوسائل الوحيدة للتعرف على علوم الغيب المحجوبة، ويقول الله في حديثه القدسي (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم)⁵³، فطاعة الله والتزام منهجه وسيلة إلى مزيد من العلم وهذا تأسيس على الحقيقة الأولى أن العلم كله من الله، ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم والتقوى، فهما دليل القلب إلى الله⁵⁴. والعقل بما فيه من معرفة بالله وعلم، فإنه يسوق قلبك إلى الله⁵⁵.

والعقل الذي قصده مصطفى محمود هو "عقل النفس عن الهوى، وفعله حسن التمييز، وضده الهوى"⁵⁶، وبالعقل يستطيع المرء أن يتعرف على ما يضره وينفعه، وبه يعرف أمور الدين والدنيا، فالعقل مدبر وأمر وزاجر ومميز ودليل وبرهان، وبه يدرك صنع الله وقدرته ويعرف جواهر الأمور من الدين والدنيا، فالله ليس فوق الجدل، وليس فوق العقل، وليس فوق الواقع، إن الله هو العقل وهو الواقع وهو مجموع القوى الكونية التي تعمل لخيرنا في كل وقت، وهي

قوى تقبل المراجعة والتفكير والبحث والتطور⁵⁷. ولذلك فإن العلم لا ينجل من مناقشة الوهم والخرافة، لأن المعرفة غير المحدودة قانونه، والتواضع خلقه، فالعقل لا يخشى اللامعقول، والإرادة لا تعرف المستحيل⁵⁸.

ومما سبق تتضح المعرفة العقلية كما وصفها مصطفى محمود من خلال بضع نقاط كالاتي:

- إن الغرض من المعرفة هو كشف الحقيقة والوصول إليها عن طريق العقل، وذلك لأن الحقيقة والمعرفة وجهان لعملة واحدة، لأن المعرفة الحقه معرفة خاصة بالحقيقة.
- إن الحق يدرك بالعقل أما الحواسه فغاشة خادعة.
- إن الإنسان هو الكتاب الجامع والكون هو مجرد صفحات من هذا الكتاب أو سطور منه، فما الأرض والسماوات إلا صفحات من كتاب جامع هو الإنسان الذي يستطيع أن يجمعها جميعا بالعقل.
- العاقل العليم من دعا الله أن ينير عقله ويهديه إليه شوقا واختيارا لا قهرا وإجبارة، فيكون مثل السادة والأشراف لا مثل العبيد حقراء الشأن الذين يصكون على أدمغتهم، وقد طبع على قلوبهم وغشى على أبصارهم فتصوروا أنفسهم من أهل الشطارة وهم من أهل الخسارة وتصوروا أنهم اختاروا، والحق أن شيطانهم هو الذي اختار لهم سوء القرار⁵⁹.
- إن النظر العقلي هو سبيلنا بالرغم من أخطاء العقل وحدوده⁶⁰، فالأسلوب الموضوعي الهادئ الذي يتكلم بالأرقام والإحصاءات والتجربة هو الذي سوف يخلق لنا عقلية جديدة قائمة على الإدراك والفهم وهو سبيلنا الوحيد إلى حل جميع مشاكلنا⁶¹.
- إن البداهة والفترة تنفي أننا نعيش داخل حلم، فالعالم الخارجي موجود، وحواسنا تحيلنا دائما على شيء آخر خارجنا، ولكن هناك فجوة بيننا وبين هذا العالم، حواسنا لا تستطيع أن تراه على حقيقته، وإنما هي ترجمه جائما بلغة خاصة وذاتية وبشرفة مختلفة... هي الإدراك عن طريق العقل.

• هناك نسخة موضوعية من الحقيقة نحاول أن نغش منها على قدر الإمكان، هناك حقيقة خارجنا لا نستطيع أن ندركها ونتعامل معها ولا يحدث ذلك إلا عن طريق العقل⁶².

ويؤكد مصطفى محمود من خلال ما سبق بأنه " لا يجب أن نترك أنفسنا للفكر النظري الخالص الذي يبدأ أو ينتهي في رأس صاحبه، ولكن نسعى دائما للفكر المخلوط بالعاطفة الممزوج بالوجدان والفكر الذي يخرج من العقل لا ليخاطب العقل، بل ليتلقفه الإحساس فيحيله إلى صورة ترى، وكلمة تسمح، وحركة تدرك بالوعي والشعور⁶³؛ كما أكد أيضا: أنه يجب تربية العقل على التفكير؛ وجعل التفكير منهج، وذلك بربط العلم بالحياة لتكون الدراسة داخل المصنع داخل المعمل لتتغير بلدنا للأفضل دائما"⁶⁴.

وذلك بأن نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الأكبر، ثم نتخطى الوطن إلى الإنسانية الكبرى، ثم نتخطى الإنسانية إلى الطبيعة وماوراءها، ثم إلى الله الذي جئنا من غيبه المغيب ومصيرنا أن نعود إلى غيبه المغيب⁶⁵.

3- المعرفة الحدسية

يعد الحدس أحد مصادر تحصيل المعرفة، والمعرفة الحدسية هي المعرفة التي تتم بالمواجهة المباشرة بين الذات المدركة والموضوع المدرك، وإذا كان فريق من العقليين قد استخدموا الحدس العقلي كأداة للمعرفة فإن الصوفية أيضا قد استخدموا الحدس الذوقي الذي يفضي إلى ضرب من اليقين. وذلك لأن حجة الإسلام هي العقل والمنطق في كل الاوقات فكانا وسيلتا النبي محمد - صلى الله عليه وسلم ، إلى الإقناع وليست المعجزات ولا الخوارق، وإذا كانت هناك معجزة في الموضوع فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت أو شفاء أبرص أو إخراج حية من عصا، وإنما كانت المعجزة هي ذات النبي نفسه التي جمعت الكمالات وبلغت في كل كمال ذروته⁶⁶.

ولذلك يعد الحدس عند مصطفى محمود رؤية عقلية مباشرة فقد رأينا العلم في أمريكا وأوروبا وروسيا.. ماذا يصنع بدون خلق... ورأينا أن الصعود الصعب هو أن تصعد على نفسك وتملك ناصيتها بالحق لا بالباطل، ولهذا تحدث القرآن الكريم عن المؤشر الحقيقي والأزلي للعظمة الإنسانية وهو العظمة الخلقية، وما دام حدس الدين وحدس العلم اتفقا

فالقرائن تصبح قوية⁶⁷، فالحدس العقلي كما يراه مصطفى محمود هو قوة البصيرة⁶⁸، أو كما يسميه برجسون "Brigson" هو معرفة العقل للعقل⁶⁹.

غير أن مفهوم العلم في الغرب مختلف عن مفهومنا، فعندنا الدين علم لأنه علم بالله والله هو أشرف معلوم، وعندنا لا يصح العلم بدون تقوى ولا يصح بدون خلق؛ فالعلم عندنا وسائله الحواس والاستقراء والتحليل العقلي، كما أن وسائله التلقي بالقلب والاستمداد من الله...

فالله هو المستند النهائي لجميع الحقائق... وذلك هو العلم اللدني الإشراقي. ولذلك كانت من وسائل العلم عندنا العبادة والطاعة والاستقامة بل هي الوسائل الوحيدة للتعرف على علوم الغيب المحجوبة، فطاعة الله والتزام منهجه وسيلة إلى مزيد من علم... وهذا تأسيس على الحقيقة الأولى أن العلم كله من الله؛ ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين العلم والتقوى⁷⁰، فالإسلام أطلق الفكر وفك العقل من عقاله... وأكثر من هذا اعتبر العقل والحرية.. هما الأمانة التي في عنق كل مسلم... الأمانة التي قبلها كل البشر منذ العرض الأول الذي عرضه رب العالمين على خلقه (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)⁷¹ لقد أخذ الإنسان الأمانة وهي أمانة عقله وحريته وقبلها على أن يعمل بها ويصونها⁷².

فالحدسية عند مصطفى محمود تكمن في المعرفة الحقبة وجلاء البصيرة والكشف والعلم الحق، فالعلم بالله هو وحده العلم وهو الباب إلى التخلق والتحقق بمكارم الأخلاق، ولا وصول لأي قيمة بدون هذا النور الإيماني وبدون هذا النور.. سيظل العالم يتخبط في ظلمات وحروب وصراعات بلا نهاية⁷³.

ومما سبق يتضح للباحثة أن مصطفى محمود أكد على أن العقل يعد من أهم مصادر اكتساب وتحصيل المعرفة، فهو أداة منظمة ومرتبطة لما يجمعه الإنسان بجواسه من مدركات مختلفة، ولا يقف عند هذا الحد بل إنه قد يلجأ إلى فكرة العقل الفعال والمعرفة الإشراقية. والحق أن هذه المعرفة ليست كل شيء عند مصطفى محمود على الرغم من أهميتها الكبرى كأسلوب من أساليب التفكير؛ غير أنه يؤكد بأن الإنسان ما أن يهديه الله لها فإنها تصبح له كل شيء في تفكيره.

4- المعرفة الإشراقية

يوضح مصطفى محمود أن الفلسفة الإشراقية تقوم في مقابل المشائية، فبينما تقوم الثانية على البحث والحجج العقلية المنطقية تقوم الأولى على الكشف والذوق الصوفي... والعلم في الفلسفة الإشراقية لا يأتي عن طريق التجريد أو تمثل صورة الموضوع في الذهن، بل هو علم لا يزيد شيئاً على الذات العارفة⁷⁴.

ولذلك فالمعرفة تقوم على الحدس الذي يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية صعوداً ونزولاً، وتسمى العلم الحضوري أو الإتصال الشهودي بالمعرفة الإشراقية أو (الزوقية) هنا كل معرفة لم تأت بالطريق الواقعي المعهود الذي يبدأ بالحسي للوصول إلى العقلي، أو بالجزئي للوصول إلى الكلي، وإنما تلك المعرفة الناجمة عن مصدر إلهي؛ سواء كان ذلك فيضاً من العقل الفعال أو نوراً يقذفه الله في قلوب أوليائه، فيدركون الحقائق والكليات مباشرة ودونما وساطة من الحس والعقل⁷⁵. ولقد تناول الإسلام الطبيعة الإنسانية بفلسفة تربوية نابعة من خطاب قرآني وسنة نبوية، والملاحظ أن الإسلام اهتم في توجيه التربوي بالفرد ثم حاول ضبط هذا الكائن داخل الفئة الاجتماعية، وهذه الأخيرة تعتبر جزءاً من الأمة عامة، وإذا تأملنا القرآن فإننا نلاحظ تركيزه على مسألة المعرفة على اعتبار أنها جزء أساسي من الطبيعة الإنسانية وهي: معرفة الله / معرفة النفس / معرفة الكون / معرفة الجنة والنار. ومصدر هذه المعرفة كتاب ناطق وخير مجتمع عليه (السنة)⁷⁶.

فالقضية عند مصطفى محمود بالدرجة الأولى قضية إيمان، هي قضية رؤية... كيف نرى العالم...؟ وكيف ننظر فيما حولنا...؟ وكيف نحب...؟ هل نستطيع أن نكون ذلك العارف الذي لا يرى في كل شيء إلا الواحد... ولا يبصر إلا وجه ربه في كل محبوب. هل يمكن أن نكون مصداق الآية (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ)⁷⁷.

تلك هي الفلسفة التي مر بها تطور مصطفى محمود الفكري والذي جعل له رؤية انفرادية بها عن غيره من الفلاسفة والمفكرين من عصره، وفي هذا الإطار نحب وفي هذا الإطار نكره... فنبدل المروءة والمعروف والمودة للجميع ولا يكون لنا تعلق ولا يكون لنا حب إلا الله وبالله وفي الله. ذلك هو الجهاد الصعب. ولا اختيار.. ولا طريق آخر، وكل واحد وعزيمه، وكل واحد وهيمته.. وعبرة كل حياة بختامها... فلنسارع إلى المجاهدة ولنشمر السواعد حتى لا يكون محصول حياتنا

صفرا وحتى لا يمضي بنا كل يوم إلى نقصان، وحتى لا يصبح كل يوم من أيامنا مطروحا من الذي قبله، إنما خلق الله الغواية لامتحان القلوب و ليعرف الكبار أنفسهم وليعرف الصغار أنفسهم من البداية...⁷⁸.

الفرق بين العلم والمعرفة الإشرافية

يرى مصطفى محمود أن المعرفة أعلى من العلم، والوقفه نهاية في المعرفة، بينما يرى ابن عربي أن العلم أرقى من المعرفة، ونحن نتكلم عن العلم بالله، والمعرفة بالله، دون العلم والمعارف الأخرى، ويرى ابن عربي أيضا أن اسم "عالم" الذي سمنا الله به أولى من اسم "عارف"، وأن العارف دون العالم، والله ما سمى العابد عارفا إلا من كان حظه البكاء من الأحوال، ومن المقامات الإيمان بالسمع لا بشهود الأعيان، ومن الأعمال الرغبة إليه سبحانه والطمع في اللحوق بالصلحين قال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)⁷⁹ ولم يقل علموا فوصفهم بالمعرفة، وفي آخر الآية (فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)⁸⁰ فسماعهم ليس من أنفسهم وأن الله سبحانه وتعالى أثابهم؛ والصدقية فوق هاتين الصفتين اللتين طلبهما العارف، فالعارف يعمل على تحصيل الأجر والثواب، والله برأ الصديقين من طلب الأعواض وطلب الثواب لأنهم يعلمون أن أفعالهم ليس لهم فلا يقوم بهم خاطر لطلب العوض فلنلعم الأدب، فعلم الأسماء عظيم، وانظر بعين البصيرة أدب الرسول - صلى الله عليه وسلم - أين جعل العارف، حيث جعله الحق فقال - صلى الله عليه وسلم - " من عرف نفسه عرف ربه " ولم يقل علم ربه.

وقد جرى د. مصطفى محمود على مجرى أهل الله، وأطل على صاحب المقامات والعلوم اللدنية اسم عارف، وهو مصيب في ذلك، فلا يعترض أحد على كلامه؛ حيث اعتبر العلم هو مطية ودابة تركبها لهدفك والخطر كل الخطر أن تركبك هي تقودك هي وتجعل من نفسها هدفا لك، والعلم لا يصلح هدفا (فهو مجرد تحصيل المعلومات الجزئية عن الأشياء وروابطها وعلاقتها) وذلك هدف المحجوبين من العلماء الذين وقفت همته عند إدراك الأشياء وعلاقتها، وهم الذين قال عنهم القرآن (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)⁸¹.

أما أصحاب الهمم العالية فالعلم عندهم وسيلة إلى غاية أخرى هي المعرفة؛ فالمعرفة عندهم غير العلم، فالعلم تنتهي حدوده عند إدراك الجزئيات والمقادير والعلاقات بين الأشياء والقوانين التي تربطها، ومنتهى العلم أن نكتشف أن جميع الأشياء الحي منها والميت مخلوقة من خامة واحدة ومركبة بخلطة واحدة. ويخرج العلم بعد ذلك إلى مرحلة جديدة يسميها البعض "معرفة"، ويفرقون فيها بين العلم والمعرفة حيث إن العلم يبحث في الكون، والمعرفة تبحث في المكون... العلم يبحث في الأشياء المتعددة، المعرفة تبحث في الواحد... العلم يبحث في المادي، المعرفة تبحث في الغيبي... ولهذا كانت وسائل العلم (المسطرة والبرجل والمجهر والتلسكوب وللحواس الخمسة والتحليل العقلي) أما وسائل المعرفة الإشرافية فهي (القلب والبصيرة والوجدان الصوفي) ولذلك فإن الحقيقة المؤكدة التي يقولها العلم أن هناك وحدة في الخامة لا أكثر.. وحدة في النسيج والسنن الأولية والقوانين.. وحدة في المادة الأولية التي بني منها كل شيء⁸².

وهذا ما أكد عليه مصطفى محمود وذلك بأنه لا يمكن البدء في رحلة المعرفة إلا بالخروج من قطار العلم وقيوده وضوابطه من عقل ومنطق وحواس وأدوات مادية، وهذا يستلزم التجرد من العالم المادي كله؛ ولكن العالم المادي هو معشوق النفس ومجالها... وما العقل والمنطق والعلم إلا خدام النفس ومطاياها للتسلط على هذا العالم المادي وحيازه وامتلاكه وتكريسه لإشباع أهواء النفس وملذاتها.

وأن لا خروج من العقل والمنطق ولا خروج من أسر الحواس ولا خروج من سيطرة العالم المادي إلا بالتجرد عن النفس وهزيمتها وقمعها وإخضاعها وتكميمها وإسكات رغباتها، وهو ما يسميه النفري بالخروج من النفس أو عبور النفس وتجاوزها ويلخص هذا العبور في كلمات قليلة بليغة. " اخرج عن نفسك عن همك اخرج عن علمك اخرج عن عملك اخرج عن اسمك اخرج عن كل ما بدا" أي من ظواهر الكون المادي كله، وماذا بعد ذلك .. يكون مطلوبك هو الله.. وهمك هو الله.. وذكرك هو الله.. ونطقك هو الله.. وفكرك هو الله⁸³.

ويؤكد مصطفى محمود على انه بدون سلوك لا توجد معرفة ولا بد من العمل بما تعلم ليعطيك الله علم ما لا تعلم، وأقرب الطرق إلى معرفة الله هو معرفة النفس الإنسانية⁸⁴، وأن حياة البشر تقوم على ماديات ومعنويات، والمعرفة

يجب أن تشمل الجزأين معا المادة والروح، فالمعرفة وسيلة البشرية التي لا تملك غيرها فإنني أحب طرائق العلم، لكنني أخشي نتائج العلم ولعل عقل العلم لا يكفي ولا بد من إدراك الجمال والروح ويتم ذلك بالعودة إلى القلب⁸⁵.

كما أشار محمود بأنه على الرغم من تعدد الوسائل التي يتم من خلالها التعليم إلا أن هناك وسيلة هي أساس العلم وهي أن الله قد علمنا بعض وسائل العلم الذي أراد لنا أن نتقدم فيه ومن هذه الوسائل قائمة على مبدأ السببية فهو تعالى وإن كانت إرادته هي العليا ويكفي أن يقول للشيء كن فيكون كما جاء في قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا)⁸⁷⁸⁶.

ولهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات والظروف الخارجية، بل إن هذه المقاومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن تكشف حريتنا عن مدلولها في الخارج إلا بوجود عقبات تزحزحها و تتغلب عليها، إنه تكشف عن مدلولها من خلال صراع وبدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى، ويؤكد أيضا بأن البدايات أصل من أصول المعرفة ومرجع لا يجوز الشك فيه (لأن هذا المرجع شأنه شأن الحياة ذاتها) وكما تأتي إلى الحياة مزودين بعضلات لتتحرك بها وندافع عن أنفسنا كذلك نولد مزودين بالبدايات الأولى لنحتكم إليها في إدراك الحق من الباطل والصواب من الخطأ، وأعلى درجات المعرفة هي ما يأتيك من داخلك، فأنت تستطيع أن تدرك وضعك (هل أنت واقف أو جالس أو راقد) دون أن تنظر إلى نفسك، يأتيك هذا الإدراك وأنت مغمض العينين، وتقوم هذه المعرفة حجة على أية مشاهدة، وحينما تقول أنا سعيد، أنا شقي، أنا أتألم، فكلامك حجة بالغة ولا يجوز تكذيبه بحجة منطقية، بل إن تناول هذا الأمر بالمنطق هو تنطع و لاجحة لا معنى لها... فلا أحد أعرف بحال نفسك من نفسك ذاتها⁸⁸.

بالمثل شهادة الفطرة وحكم البداهة هي حجة على أعلى مستوى، وحينما تقول الفطرة والبداهة مؤيدة بالعلم والفكر والتأمل، حينما تقول بوجود الروح والنفس وبالحرية و بالمسئولية والمحاسبة، وحينما توحى بالتصرف على أساس أن في الكون نظاما، فنحن هنا أمام حجة على أعلى مستوى من اليقين. وهو يقين مثل يقين العيان أو أكثر، فالفطرة عضو مثل العين نولد به. وهو يقين أعلى من يقين العلم؛ لأن الصدق العلمي هو صدق إحصائي والنظريات العلمية تستنتج

من متوسطات الأرقام. أما حكم البدهاة فله صفة القطع والإطلاق $4 = 2 \times 2$ هي حقيقة مطلقة صادقة صدقاً مطلقاً، لا يجوز عليها ما يجوز من نسخ وتطور وتغير في نظريات العلم لأنها مقبولة بديهية.

$2=1+1$ مسألة لا تقبل الشك لأنها حقيقة ألفتها إلينا الفطرة من داخلنا وأوحت بها البدهاة، وهي معرفة أولى

جاءت إلينا مع شهادة الميلاد، ولو أدرك الإنسان هذا لأراح واستراح ولوفر على نفسه كثيراً من الجدل والشقشقة والسفسطة والمكابرة في مسألة الروح والجسد والعقل والمخ والحرية والجبر والمسئولية والحساب ولاكتفى بالإصغاء إلى ما تهمس بع فطرته وما يفتي به قلبه وما تشير به بصيرته⁸⁹.

ملامح المعرفة الإشراقية عند مصطفى محمود

بدأت ملامح المعرفة الإشراقية لدى مصطفى محمود تظهر من خلال بعض التساؤلات التي يفتتح بها بعض كتبه مثل: " السر الأعظم"، حيث يخاطب في هذا الكتاب القارئ المؤمن الذي لم يكتف بأن يعرف أن الله موجود وإنما يريد أن يعرف هذا الرب، ويستجلي أسرار.. من هو؟ ولماذا خلق ما خلق؟ وما حقيقة العلاقة بين الحق والخلق، وبين العبد والرب؟.. ويستضيء مفكرنا في بحثه بأقوال أقطاب المتصوفين من أهل الكشف والفتوحات، من أمثال ابن عربي والغزالي والنفري والجيلي وأبي العزائم⁹⁰.

غير أن مصطفى محمود طالعنا بمقال آخر فيه بعض اجتهادات في فهم سر الحياة وفي تنزيل هذا الفهم على بعض الآيات الكريمة.. وتفسيره لها تفسيراً يشبه إلى حد كبير التفاسير الرمزية الخاصة التي ذهب إليها بعض المتصوفة وغيرهم من الباطنية والتي جاءت في بعض كتب التفسير.. وهي أشبه ما تكون بتفاسير خاصة تدركها وربما تقبلها جماعة خاصة من أمثالهم، وهذه التفاسير كثيراً ما تكون مرفوضة ممن يعمدون إلى تفسير القرآن الكريم حسب لفظة العربي وما يؤديه هذا اللفظ العربي مع السياق وسبب النزول من معان تنفق في تفصيلها وفي جملتها أيضاً مع السياق العام للقرآن ولا تتصادم مع نص فيه ولا قاعدة تقوم عليه⁹¹.

ويتضح عالم مصطفى محمود من خلال المنهج الذي رسمه لنفسه، واختتمه "بالعلم والإيمان" ذلك البرنامج الذي يتحدث فيه عن العلم والفلسفة والتصوف، وعلاقتهم "بالأدب والفن، أو الإنسان"، والقصة القصيرة و "أدب الرحلات" - الغاية - الصحراء، وأخيرا: رحلة الرحلات أو أدب الآخرة: الطريق إلى الكعبة - رأيت الله - سدرة المنتهى، ونستطيع أن نتوصل بأن فكر مصطفى محمود ما هو إلا كائن حي له يدان، يسراه العلم، ويمناه الفلسفة، أما التصوف فهو قلب الطائر الخفاق الذي يدلّه على الفطرة⁹².

ب. علاقة المعرفة الإشراقية بالتصوف

ظهرت المعرفة الإشراقية عند مصطفى محمود في الجدل الصاعد حوله، فكلما اتسعت معلومات المرء الدينية والفلسفية اقترب من العالم العلوي، ودنت روحه من مستوى العقول التي تملك القدرة على صفاء الروح وإبعاد نفسها عن ضغوط الواقع والحياة. وبذلك تتسع حدود التجربة الحسية وتصير معرفة عقلية ومن هنا ارتبط التصوف والإشراق عند مصطفى محمود بعلم النفس ونظرية المعرفة- بل ارتبط بالنظريات الفلكية والميتافيزيقا في برنامج العلم والإيمان.. وسوف نتناوله لاحقا في هذه الدراسة بالتحليل الموضوعي.

وظهرت صلة مصطفى محمود بالمعرفة الإشراقية عامة وبالتصوف خاصة بقراءة كتب العارفين بالله، أمثال ابن عربي والنفري وابن عطاء الله السكندري، وأبي حامد الغزالي، وغيرهم ثم أخذ العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندي في مكة حين سافر للسعودية عام 1966 وقد أخذها تبركا وليس سلوكا عندما سمع أن الشيخ محمد متولي الشعراوي أخذ العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندي، وأنه أصبح أي الشعراوي أكبر داعية إسلامي بمصر، وقد وجد مصطفى محمود أن الطريقة النقشبندية هي أنسب الطرق لأن مدارها على الذكر القلبي وأورادها وأحزابها قليلة ومشاغله الدنيوية كثيرة جدا؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من صحبه الشيخ محمد منذور لمدة ست سنوات زاره في مكة من وقت لآخر، إلا أن مفكرنا يؤكد بأن لديه الشيوخ مستورون تتلمذ على أيديهم من خلال كتبهم كحالة من "الوجدانية والروحانية"، مثل تأثره الكبير

بالنفري وكتابه (المواقف والمخاطبات)، وابن عربي وكتابه الفتوحات، وابن عطاء السكندري، وكذلك الإمام أبي حامد الغزالي وكتابه (الأحياء)، وابن مكزون السنجاري "صوفي شيعي عراقي" معتدل من خلال كتابه عن السلوك الصوفي⁹³.

غير أن مصطفى محمود لم يتأثر بأي طريقة من الطرق الصوفية، وإنما كان يرى الفكر الإشراقي الطريقة العزمية أكثرهم حدسا وفهما للطبيعة الإنسانية، ويؤكد بقوله أنه يوجد بعض الطرق تسير على منهج مستقيم، مثل الطريقة التفتازانية معرفته الشخصية بالعالم والعارف الكبير الملتزم بالكتاب والسنة أبو الوفا التفتازاني⁹⁴.

وتعتقد الباحثة بأن أهم ما يجمع مفكرنا بكل هؤلاء المتصوفة وأصحاب الإشراق هو "المعرفة الذوقية" و "فكرة الاتصال" فنظرية الإشراق عند مفكرنا تفصح عن ملامح صوفية لا مجال لإنكارها في كتبه ومقالاته شرط أن نسلم بأن التصوف لا يتضمن حتمية الاتحاد بين العقل البشري والعقل الفعال. إذ أن الاتصال بمجردة في تجربة صوفية، ويترتب على ذلك أن المعرفة الإنسانية عند مصطفى محمود مستمدة من كل هؤلاء العظماء يحصلها العقل باجتهاده في الواقع وتتجلى في صورة هبه من الله سبحانه وتعالى ولا تأتي إلا بمزيد من التأمل والبحث وتصفية النفس، وكل ذلك اجتهاد للعقل في الواقع يصح بعده مهيتا لتلقى المعرفة الفيضانية إن اجيز التعبير، وهذا ما دعا بعض الكتاب والنقاد إلى عد مفكرنا ضمن أصحاب التصوف الفلسفي الذي يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم بأنظارتهم العقلية مستخدمين في التعبير عنه مصطلحات فلسفية و لإعتبار رأيه في المعرفة نتيجة مصادر متعددة تكمن في التأمل والبحث والعلم الإيماني.

وهذا هو الإطار الأبيستمولوجي الذي استمد منه مفكرنا معرفته، وقد لاحظ كثير من النقاد أيضا أن تصوف مصطفى محمود عقلي صرف أحيانا أو نظري يقوم على المعرفة والتأمل، ويبني على الدراسة والبحث قبل كل شيء فبالعلم، والعلم وحده تقريبا نصل إلى السعادة، أما العمل فبالمرتبة الثانية. ومهمته محدودة للغاية، وعلى عكس هذا يقرر مصطفى محمود بأن العلم والعمل والإيمان هما بوصله الإنسان في الحياة⁹⁵.

ج. تطور مؤلفات مصطفى محمود من الشك إلى الإيمان

تطور فكر وكتابات مصطفى محمود حيث وصلت من مرحلة البحث في ذوات الأشياء المادية إلى البحث في الذات الداخلية للانسان فقد كان دائما يقول: في بحر الصوفية الإسلامية أجد جميع البنايع وجميع الجداول وكل الأنهار، وأجد الإجابات لكل ما كنت أبحث عنه من مشاكل أزلية. فالله وحده هو الذي يقضي ويستعمل البشر جميعهم كل على حسب استعداده.. وقد يقضي بأن يستعمل البشر بعضهم بعضا ليعاقبهم بذنوبهم.. ولكنه لم يجعل لأحد ألوهية على الكون ولا حاكمية حتى على نفسه.. وأن أعنى الجبارين لا يملك إلا حرية محدودة في الزمان ومحدودة في المكان ومحدودة في القدرة. وان مشيئة الله سابقة على جميع المشيئات وداخله في كل الصفات وهي الغيب الذي لا يستطيع أحد أن يتنبأ به وأن كل منا محاسب بقدر حرته ومكلف على قدر طاقته وحدسه وفطرته.

وإذا كان ما يجري أمامنا بالحياة الآن قدر فإنه لا أحد يستطيع أن يتأكد بأن ما يحيط سلاما أو حربا، لأن كل ذلك سر وأشبه بمعادلة لا ينكشف منها إلا بعض حدودها والباقي مجرد "س" مجهولة علمنا بما تخمين وحدس وقد لا نصل إلى السبب حربا كانت أو سلاما إلا إذا أراد الله ذلك لنا، فالكوارث تحدث بموازين بالغة الحكمة نعرف بعضها ويغيب عنا أكثرها⁹⁶.

وهكذا تأتي مرحلة التحول الكامل إلى الإيمان وتتوالى مجموعة من كتب الإسلاميات: القرآن محاولة لفهم عصري - رحلتي من الشك إلى الإيمان - الله - محمد - الكعبة - التوراة - الشيطان يحكم - الروح والجسد - حوار مع صديقي الملحد.

ثم بعد ذلك وفي أواخر السبعينات تأتي المرحلة الصوفية وفيها أقدم كتب عن التصوف خالصة أسميها الثلاثية الصوفية هي: (السر الأعظم - رأيت الله - الوجود والعدم - وأيضا عظماء الدنيا وعظماء الآخرة - زيارة للجنة والنار)، وهناك أيضا أقدم أسرار القرآن، والقرآن كائن حي،.. ومجموعات قصص: نقطة الغليان، وأناشيد الإثم والبراءة، ومسرحيات مثل الشيطان يسكن في بيتنا، ومسرحية الطوفان⁹⁷.

ويؤكد بقوله من خلال كتبه أن "الدين ليس فيه هذا النوع السليبي من الطيبة، وليس فيه الاستسلام والخضوع والخضوع والاستكانة والذل، والذين امتدحوا هذه الصفات وظنوها تصوفاً أخطأوا، فهم التصوف أيضاً وانحرفوا به عن نقائه الإسلامي، فالتصوف الذي لا ينهض لمقاومة الظلم ليس له من الإسلام نصيب، وإذا كان الاستعمار قد شجع في الماضي بعض الطرق الصوفية التي تروج للسلبية والضعف والخضوع والاستكانة فإن الكثير من الصوفيين الأصلاء لم ينخدعوا ومن هؤلاء خرج جيش السنوسية يحارب الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي وقد حمل المصحف في يد والسيف في اليد الأخرى"⁹⁸.

د. دور المعرفة الإشراقية في حياة وكتابات مصطفى محمود

إن المعرفة الإشراقية عند مصطفى محمود نابعة من التصوف فهو على حد قوله "المعرفة الصوفية مشربي" وحينما سئل عن التصوف في كتاباته واستكمل قائلاً: أنا لا أضع نفسي في عداد الصوفية ولست من رجال التصوف، ولا أحسب أنني وصلت للكمال النفسي الذي يصل إليه السالك ولا أمتلك الكمالات القلبية والروحية التي يصل إليها العارفون بالله، أنا مجرد محب للتصوف والصوفية وقارئ لمؤلفات العارفين بالله، فلا أحب أن يكتب عني أي نموذج للولي المحقق السالك.

ويسترسل مفكرنا قائلاً فأنا عاشق للتصوف وليس أكثر من ذلك. غير أن العوامل المؤثرة في حياة مفكرنا والتي سبق وأن تحدثنا عنها سابقاً وربطها بالبصمات الإشراقية "بأنه تم الاستعانة بها لا معنى لحياة الإنسان ولا قيمة لوجوده إذا اقتصرته حياته على التكرار المتعدد، دون تغيير وتفرد، ودون أن يصل إلى معرفة الله تعالى، وتحقيق العبودية له سبحانه، ونقصد بتعدد التكرار، تشابه الساعات والأيام والسنين،

وتشابه الأفراد من حيث نمطية الحياة، فتكون أنت مثل الآخر لا فرق: ولادة - طفولة - تعليم - مهنة - زواج - انجاب - أولاد - وأحفاد - ثم الموت عبودية لرغبات الجسد من أكل وشرب ومتع دنيوية زائلة"، وهذه ضرورات لا بد

منها، بل أصبحت غير متوافرة لأغلب الشباب في تلك الأيام، ونحن لا نقلل من شأن هذه الأمور فهي هيكل وجود الإنسان ولكن الخطر يكمن في الغفلة عن الله، وأن تكون هذه الأشياء هي كل محور الحياة ثم لا شيء بعدها. وهنا يكمن فكر مصطفى محمود والخبرة التي اكتسبها من الحياة بخروجه من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين وهذه هي رسالة مفكرنا لكل شاب..

فبمعرفة الله وحده وصل إلى اليقين الذاتي بأن لا إله إلا الله كما أكد مفكرنا على أن الملل والتكرار الذي يعيشه الناس لا وجود له إلا في العالم المادي، وحتى العالم المادي لا تكرر فيه، فهو من أثر تجليات الله، والله تعالى لا يتجلى مرتين في أقل من الثانية الواحدة وتجليه على الإنسان يتغير من نفس إلى نفس، يقول فيها الله للعبد انظر إلى قلبك وما يجري فيه من خواطر، تجد أنها تيار سريع جدا من الصور التي لا تستطيع ضبطها لحظة.

وهكذا كل شيء في العالم إذا لم تدركه بالبصر أدركه بالبصيرة قال تعالى: (بَلْ هُمْ فِي نَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)⁹⁹، فالخلق الجديد حادث في كل لحظة، ولو طهرت قلبك ومحوت منه صور الكون بالذكر والعبادة الشرعية لنزلت فيه الصور النورانية والمعاني والعلوم العرفانية، ووجدت، تغييرا وسعادة وابتهاجا معنويا أكثر بكثير مما تحلم به وأنت جالس في غرفتك ولو كانت مترا في متر ستجد أن العالم كله عندك، لأنك نسخة من العالم، كما قال ابن العماد في كتاب كشف الأسرار عن الإمام الدريني:

وفيك سر نسخة الوجود فانظر فأنت أقرب الشهود¹⁰⁰.

ولذلك فإننا لا نحتاج إلى ما يكسر الرتابه والملل والفراغ لأنها أمور موجودة في وهننا، نتيجة غفلتنا وجهلنا، ولكن أين هذا الإنسان؟ هذا الأمر لا يأتي إلا بعد جهاد شاق، وقتل النفس ألف مرة وهو مقام لا يحدث إلا لأفراد معدودين، ولكننا نذكره تحفيذا للهمم وتعريفا بالحقائق، لعل هذا الكلام يقع في قلب انسان مستعد لذلك فيعمل به.

غير أن مصطفى محمود وهو يعرض لنا بحار الصوفية وأدب المعرفة الإشراقية حذرنا من التهتك الصوفي حينما أكد أن التراث الصوفي بحر عميق فيه اللائيء والأصداف، ولكن فيه أيضا التماسيح والحيتان فيه حرائر المرجان وفيه المتاهات المهلكة التي لا يعود منها الملاح. والقراءة في التصوف أشبه بالملاحة في بحار الظلمات بقارب شراعي.. وربما أكثر ما تكسر الدفة ويتحطم المجذاف ويفقد السالك اتجاهه، والنور الوحيد الهادي السالك في هذا البحر هو نور الكتاب والسنة.. وبدون الشريعة لا يمكن أن يصل السالك إلى بر الأمان، فالشريعة هي دفة الملاح في هذا البحر... وهي دليله على ما يأخذ وما يدع فما وافق الشريعة من لغة القوم وعلومهم يأخذ.. وما خالف الشريعة يتركه غير نادم¹⁰¹.

فما أعمق وأمتع عالم الدكتور مصطفى محمود أنه عالم ثري وخصب فهو أشبه بالملاح الذي يعبر ويبحر عبر المحيطات يريد أن يعرف ويعرف ويعرف.. ولكنه في رحلاته الفكرية والأدبية كان دائما متسلحا بسلاح العلم والمعرفة.. إنه ينشد دائما الوصول إلى واحة المعرفة مهما كان أشواك الطريق.. نرى فيه جسارة الملاح وإرادة المفكر.. وطموحات العالم.. ورغبة الباحث عن الحقيقة.

واستخلاصا من ذلك يمكننا القول أن مصطفى محمود قد رأى أن المعرفة لا يتم تحصيلها إلا بأدوات ومناهج، فالتجربة الإنسانية لا تكتمل إلا باستخدام العقل والحواس والحدس المعرفي الإشراقي، فليس بالعقل وحده يتعلم الإنسان ويعرف، وليس بالحواس وحدها يستطيع أن يكتسب العلم ويحصل معارفه، وإنما تكتمل المعرفة بالعقل والحواس والحدس الإشراقي.

المراجع

- 1 حسان محمد حسان وآخرون: دراسات في فلسفة التربية، مكتبة القاهرة، القاهرة، 1986، ص 134.
- 2 Nelson B. Henry: Modern Philosophies and Education "The Fifty Fourth Year Book Of The National Socity For The Study Of Education, Part2" Contral Book, Depot, Allahabed, 1970. P.17.
- 3 المعرفة: هي علم بعين الشيء مفصلا عما سواه. وقيل: هي ثمرة التقابل والاتصال بين ذات مدركة وموضوع مدرك.
- 4 حسن حنفي: دراسات إسلامية في فلسفة التربية، ط4، دار التنوير للنشر، بيروت، 1989، ص 301.
- 5 رمزي أحمد مصطفى عبد الحي: الآراء التربوية عند قاسم أمين، كلية التربية، جامعة المنوفية، 1989م، ماجستير غير منشور، ص94.
- 6 الأنطولوجيا: مبحث الأمور العامة وهي ما لا يختص بقسم من أقسام الموجود التي هي الواجب والجوهر والعرض بل تطلق على الموجود من حيث هو كذلك فتعم جميع الموجودات، اما الأبيستمولوجيا: هي دراسة يتعلق غرضها بالعلوم من حيث موضوعاتها ومبادئها وقوانينها وعلاقات بعضها ببعض وتكشف عن أصلها ومداهها، وتطلق أيضا على نظرية المعرفة. المعجم الفلسفي، جمهورية مصر العربية/ إصدار مجمع اللغة العربية، 1983، باب الألف، ص 1،8.
- 7 منال سمير الرافي: مبادئ الفلسفة، دار الشروق، القاهرة، 1996م، ص111.
- 8 مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، جريدة الأهرام، بتاريخ 3 أغسطس 1988، رقم المقال 85، ص383.
- 9 د. فوقية حسين: مقالات في أصالة الفكر المسلم، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996، ص123.
- 10 عبد العزيز شرف: عن د. مصطفى محمود بين أدب الرحلات وأدب الآخرة، جريدة الأهرام، بتاريخ 14 يناير 1980، رقم المقال 115، ص102، 101 {رد عن مقال د. مصطفى محمود بنفس الجريدة تحت نفس العنوان}.
- 11 مصطفى محمود: هل كان لنا وجود قبل أن نولد؟، جريدة الأهرام بتاريخ، 13 أغسطس 1979، رقم المقال 6، ص60.
- 12 د. محمد غلاب: المعرفة عند مفكرين المسلمين، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1960، ص 220، وكذلك د. محمد فتحي الشنيطي: المعرفة، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ط2، 1962، ص56.
- 13 عبد الباسط محمد حسن: أصول البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة السادسة، 1977، ص18.
- 14 مصطفى محمود: الروح والجسد، القاهرة، دار المعارف، ط5، 1990، ص50: 53.

- 15 المرجع السابق: ص 50: 53.
- 16 المجالس القومية المتخصصة: القيم والسلوكيات في مجال التنشئة الاجتماعية، تقرير المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي والتكنولوجيا، المجلد الحادي عشر، 1990، ص 335.
- 17 عبد الغني عبود، وحسن عبد العال: التربية الإسلامية وتحديات العصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990، ص 66.
- 18 مصطفى محمود: كلمة تعني الكثير، جريدة الاهرام، بتاريخ 7 نوفمبر 1983، رقم المقال 41 ص 178.
- 19 مصطفى محمود: الجزء والكل، جريدة الأهرام، بتاريخ 9 إبريل 1984، رقم المقال 53 ص 222.
- 20 سعيد عبد الغفار على الدسوقي: المضامين التربوية في كتابات الحكيم الترمذي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة بنها، فرع الزقازيق، 2003م، ص 83.
- 21 مصطفى محمود: الروح والجسد، ص 70.
- 22 مصطفى محمود: الشيطان يحكم، دار المعارف، القاهرة، 1976، ص 81.
- 23 أحمد أبو زيد: الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي (46)، وزارة الإعلام، الكويت، أكتوبر، 2001، ص 7.
- 24 مصطفى محمود: الشيطان يحكم، ص 81.
- 25 عصام الدين هلال وآخرون: الحداثة وما بعدها" دراسات في الأصول الفلسفية للتربية"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2003، ص 49.
- 26 محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 1994، ص 20-21.
- 27 مصطفى محمود: الجزء والكل، ص 222.
- 28 مصطفى محمود: الجزء والكل، ص 223.
- 29 مصطفى محمود: حكاية الحب، جريدة الأهرام، بتاريخ، 7 مايو 1984، رقم المقال 75، ص 240.
- 30 سورة الزلزلة، الآية: 7، 8.
- 31 مصطفى محمود: نقطة من البحر المحيط، جريدة الأهرام، بتاريخ 19 نوفمبر 1984، رقم المقال 73، ص 316.
- 32 مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، ص 383.
- 33 مصطفى محمود: الجزء والكل، ص 223.

- 34 مصطفى محمود: هل كانت لنا حياة قبل أن نولد؟ عن د. عبد الصبور شاهين، جريدة الأهرام بتاريخ 14 سبتمبر 1979، رقم المقال 17، ص 69.
- 35 مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، ص 383.
- 36 سورة العلق: الآية 1.
- 37 مصطفى محمود: الخروج من مستنقع فرويد، ص 383.
- 38 مصطفى محمود: الحضارة عن طريق الانتحار، جريدة الأهرام، بتاريخ 7 مايو 1983، رقم المقال 31، ص 124، 123.
- 39 مصطفى محمود: الجزء والكل، ص 222.
- 40 مصطفى محمود: رأيت الله، ص 46.
- 41 مصطفى محمود: الجزء والكل، جريدة الأهرام، بتاريخ 9 إبريل 1984، رقم المقال 53، ص 223.
- 42 سورة البقرة: الآية: 115.
- 43 مصطفى محمود: أشد الناس عداوة، جريدة الأهرام، بتاريخ 4 سبتمبر 1999، رقم المقال 270، ص 1708-1709.
- 44 مصطفى محمود: اينشتين والنسبية، ط6، دار المعارف، القاهرة، 1990، ص 16.
- 45 مصطفى محمود: لغز الموت، ص 32: 33.
- 46 مصطفى محمود: لغز الموت، ص 33: 37.
- 47 مصطفى محمود: لغز الموت، ص 33: 37.
- 48 سورة البقرة: الآية 31: 33.
- 49 سورة النحل: الآية: 78.
- 50 مصطفى محمود: أكلدوبة اليسار الإسلامي، ط2، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 45.
- 51 مصطفى محمود: رأيت الله، ص 17.
- 52 مصطفى محمود: البرزخ، جريدة الأهرام، بتاريخ 22 إبريل 2002، رقم المقال 324، ص 2045.
- 53 أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء 14/10 - 15 بإسناده إلى يحيى بن معين قال: ذكر أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صل الله عليه وسلم قال: " من عمل بما يعلم ورثه

الله علم ما لم يعلم" ثم قال لأحمد ابن أبي الحواري: صدقت يا أحمد وصدق شيخك، وقال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي صل الله عليه وسلم، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل. أ. هـ. وقد أخرج أبو نعيم في "حلية الأولياء" 6/ 163، والحافظ ابن عساكر في "تاريخ مدينة دمشق" 37/ 231 عن عبد الواحد بن زيد قال: من عمل بما علم فتح الله له ما لا يعلم. وأخرج ابن عساكر في "تاريخ مدينة دمشق" 48/ 414 عن الفضيل بن عياض: من عمل بما علم استغنى عما لا يعلم ومن عمل بما علم وفقه الله لما لا يعلم. فالصحيح أنه ليس حديثا نبويا شريفا ولا حديثا قدسي وإن اشتهر مع أن معناه صحيح لا ريب.

<http://cb.rayaheen.net>

54 مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي، ص 46.

55 مصطفى محمود: رأيت الله، ص 49.

56 مصطفى محمود: السر الأعظم، ص 129.

57 مصطفى محمود: الله والإنسان، ص 131.

58 مصطفى محمود: الخروج من التابوت، ص 123.

59 مصطفى محمود: الروح والجسد، ص 50: 53.

60 مصطفى محمود: أي الأحزاب سوف نختار، جريدة الأهرام، بتاريخ 14 مايو 1984، رقم المقال 58، ص 246.

61 مصطفى محمود: مجلس الشعب هو المتهم وليس ابن عربي، جريدة الأهرام، بتاريخ 4 يناير 1979، رقم المقال 13، ص 49.

62 مصطفى محمود/ اينشتين والنسبية، ص 16.

63 عبد العزيز شرف: بين أدب الرحلات وأدب الآخرة، جريدة الأهرام، (رد عن مقال د. مصطفى محمود بنفس الجريدة تحت نفس العنوان)، ص 101.

64 مصطفى محمود: البروسترويكا.. والعالم الإسلامي، جريدة الأهرام، بتاريخ 2 إبريل 1990، رقم المقال 93، ص 417.

65 مصطفى محمود: الروح والجسد، ص 82.

- 66 مصطفى محمود: محمد - صلى الله عليه وسلم - محاولة لفهم السيرة النبوية، ط10، القاهرة، دار المعارف، 1997، ص14.
- 67 مصطفى محمود: هل هو عصر الجنون، ص 47.
- 68 مصطفى محمود: من أسرار القرآن، ص 65، 64.
- 69 محمد علي أبو ريان: الفلسفة ومباحثها مع ترجمة المدخل إلى الميتافيزيقا، ط10، دار المعارف، القاهرة، 2005، ص199.
- 70 مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي، ص46.
- 71 سورة الأحزاب: الآية : 72.
- 72 مصطفى محمود: استعمال الإسلام لهدم الإسلام، جريدة الأهرام، بتاريخ 19 سبتمبر، 1995، رقم المقال 181، ص1081.
- 73 مصطفى محمود: الذين يتشدقون بحقوق الإنسان، ص1632.
- 74 مصطفى محمود: الوجود والعدم، ص ص 60، 59.
- 75 د. إبراهيم عاتي: الإنسان في الفلسفة الإسلامية، القاهرة، مكتبة الأسرة - مهرجان القراءة للجميع، مطابع الهيئة العامة للكتاب، 2005، ص183.
- 76 ملاك المصطفى: الطبيعة الإنسانية في التصور الإسلامي، تم الدخول بتاريخ 7 أغسطس 2010، http://www.bab.com/articles/full_article.cfm?Id=7610
- 77 سورة البقرة الآية: 115.
- 78 مصطفى محمود: أناشيد الإثم والبراءة، ص57.
- 79 سورة المائدة، الآية: 83.
- 80 سورة المائدة، الآية: 85.
- 81 سورة الروم، الآية: 7.
- 82 مصطفى محمود: رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص8.
- 83 مصطفى محمود: رأيت الله، ص150.
- 84 مصطفى محمود: الوجود والعدم، ص63.

- 85 مصطفى محمود: دفتر الجيب "توفيق الحكيم" جريدة الأهرام بتاريخ، 27 يناير 1986، رقم المقال 209، ص7.
- 86 سورة الإسراء، الآية: 16.
- 87 توفيق الحكيم: دفتر الجيب، جريدة الأهرام، ص8.
- 88 مصطفى محمود: القرآن لمحاولة فهم عصري، ص16.
- 89 مصطفى محمود: رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص24.
- 90 مصطفى محمود: كتاب قرأته في "السر الأعظم"، جريدة الأهرام بتاريخ 25 يونيو 1976، رقم المقال 19، ص21.
- 91 مصطفى محمود: هل كانت لنا حياة قبل أن نولد؟" الحياة واجتهادات التصوف"، جريدة الأهرام بتاريخ 30 أغسطس 1979، رقم المقال 19، ص76.
- 92 مصطفى محمود: أدب الرحلات وأدب الآخرة عن د. عبد العزيز شرف، جريدة الأهرام بتاريخ 14 يناير 1980، رقم المقال 24، ص 101.
- 93 أحمد كمال الجزار: دكتور محمود والتصوف، دار أخبار اليوم، القاهرة، 1999، ص74.
- 94 المرجع السابق، ص29.
- 95 مأمون غريب: مصطفى محمود مفكرا إسلاميا، دار الفيصل، القاهرة، 1988، ص 76: 70.
- 96 مصطفى محمود: ماذا بعد صدام، جريدة الأهرام، بتاريخ: 10 نوفمبر 1990، رقم المقال 97، ص1632.
- 97 مصطفى محمود: واجب الكاتب أن يبحث عن الحقيقة، جريدة الأهرام، مرجع سابق، ص 109.
- 98 مصطفى محمود: الرجل الطيب، جريدة الأهرام، بتاريخ 4 يونيو 1984، ص 91.
- 99 سورة ق، الآية: 15.
- 100 مصطفى محمود: الوجود والعدم، ص 45-47.
- 101 مأمون غريب: مرجع سابق، ص95.